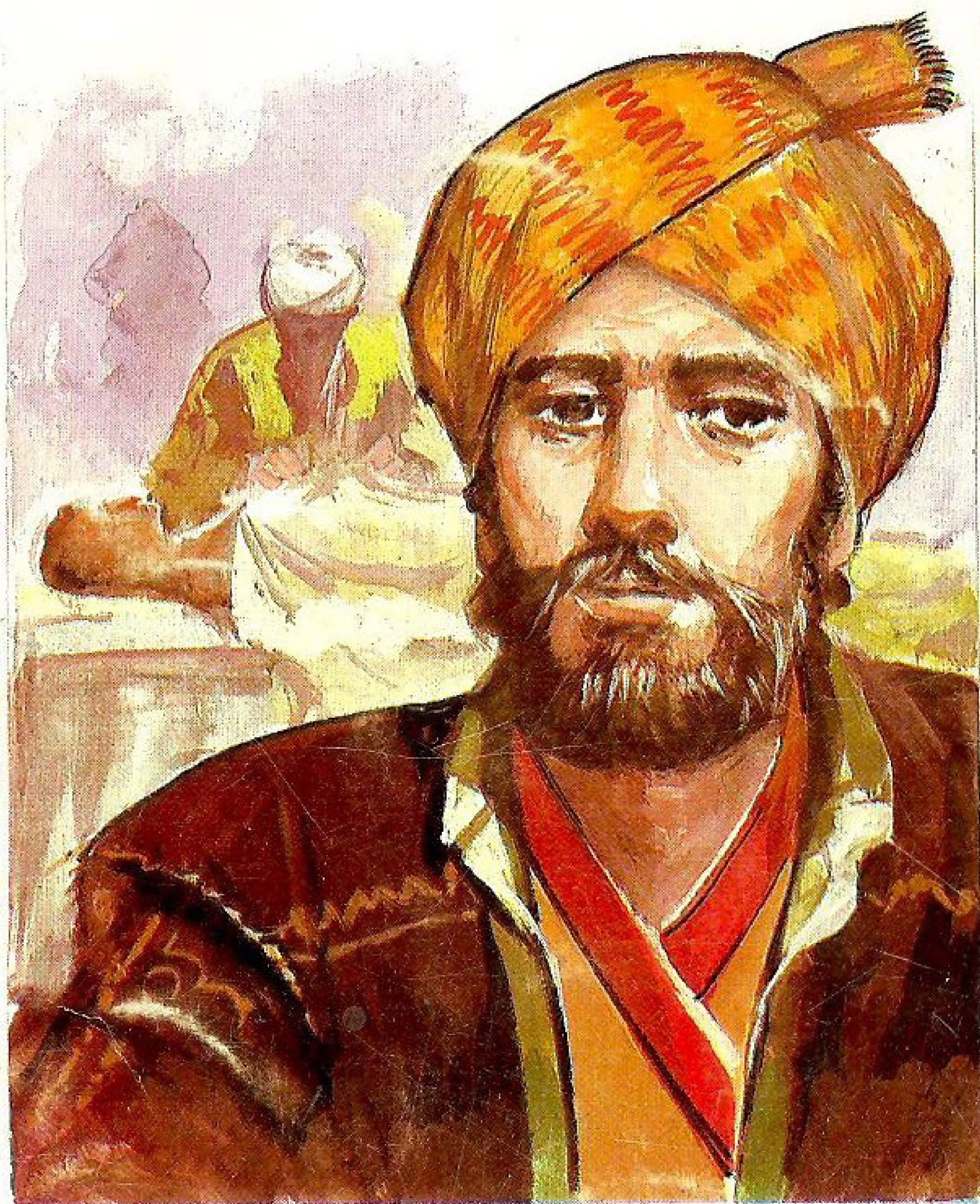


علماء  
العرب

١٩

# الزهراوي

## أبو الجراح



تأليف : سليمان فياض  
رسوم : اسماعيل دياب

الأهرام  
مركز الأهرام  
للترجمة والنشر



علماء  
العرب  
(١٩)

# الزهر اوى

## أبو الجراحه



تأليف : سليمان فياض  
رسوم : اسماعيل دياب





## نقاش من قرطبة

دَخَلَ «عَبَّاسُ» النَّقَّاشُ ، عَلَى وَلِيِّ الْعَهْدِ «الْحَكَمُ» ، فِي  
قَصْرِه بِقُرْطُبَةٍ . كَانَ مَعَهُ الطَّبِيبُ «عِيسَى بْنُ إِسْحَقَ» ، رَئِيسُ  
«بِيْمَارِسْتَانِ» (مُسْتَشْفَى) قُرْطُبَةٍ ، وَوَقَفَا يَنْتَظِرَانِ ، حَتَّى  
دَعَاهُمَا «الْحَكَمُ» إِلَيْهِ . وَقَالَ «عِيسَى» لَوْلَى الْعَهْدِ :

الطبعة الأولى

١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

الناشر : مركز الأهرام للترجمة والنشر  
مؤسسة الأهرام - شارع الجلاء - القاهرة  
تليفون ٥٧٤٧٠٨٣ - تليكس ٩٢٠٠٢ يو ان



- ها هو ، أيها الأمير ، الرجل الذي حدثك عن مهارته  
في النقش والزخرفة .

فقال « الحَكَم » لعباس :

- تقدّم يا رجل ، وأرنا كَفِّكَ .

وتقدّم « عباس » خطوتين ، وبسط كَفِّه لوليّ العهد ،  
فتَحَسَّسهما وتأمَّلهما ، كانتا خشبتين ، نافرتي العُروق .  
وكانت أصابع الكفين مرهفة وطويلة ، كأنها أصابع عازف على  
العود ، وابتسم « الحَكَم » وقال لعيسى :

- هكذا أريدُ يَدَي من سينقشُ ويزخرفُ الأبواب ،  
والنوافذ ، والجدران ، في قصر « الزهراء » .

والتفت « الحَكَم » إلى « عباس » قائلاً :

- أحبّ من يعملُ بيديه ، ولا يعتمدُ على صبيته .

فقال له « عباس » :

- أيها الأمير ، إنني أضعُ التصميمَ لما سأُنقِشه وأزخرفه  
بنفسي ، وسأعرضه عليك قبل تنفيذه . ولي مساعدتي  
المدرّبين ، الذين أعتدُّ عليهم في التنفيذ ، تحت إشرافي





المستمر ، ثم أتولى بنفسى ختام كل العمل ومراجعته ، والتأكد من سلامته ، بيدى هاتين ، حتى لا يكون فيه نثار . تماماً ، مثل اللحن الموسيقى .

فضحك « الحَكَم » وقال :

- حديثك يا عباس حديث متذوق فنان .

فقال « عيسى » مادحاً « عباس » :

- أيها الأمير ، عباس فنان حقاً . يرسم الشكل على الرخام ، أو الخشب ، أو الجص ( الجبس ) ، أو الحجر ، ثم يروح يحفر فيه ويقوّر ، ويعوّر ، ويبرز ، ويعطف ( يميل الاستدارات ) ، كأنه واحد من هؤلاء المردة النحاتين للتماثيل ، في بلاد اليونان والرومان ، في سالف ( سابق ) القرون .

فقال « الحَكَم » لعباس :

- سأقول لك ، يا عباس ، كيف نريد الزخارف والنقوش ، في قصر الزهراء ، ومسجدها ، أريد أن تجمع طرزها بين فنون الزخرفة : البيزنطية ، والقوطية ، والفارسية ، والدمشقية . فنحن ورثة كل الحضارات ، وسنعطي ما ورثناه لمن يأتي بعدنا .

فقال « عباس » بثقة :

- أعرف كل هذه الطرز جميعاً أيها الأمير . وقد رأيت بعينى طرز البناء ، التى رسمها المهندسون على الورق لضاحية قرطبة الكبرى : « الزهراء » ، وستكون راضياً إن شاء الله ، أيها الأمير ، أنت ووالدك الخليفة « عبد الرحمن الناصر » ، أعزه الله .

### ابن الزهراء

حين عاد « عباس » ، ذات ليلة ، إلى بيته ، فى موقع العمل بالزهراء ، سمع صراخ وليد ، ورأى الطبيب « عيسى » جالساً . وبالقرب منه « قابلة » ( مولدة ) تغسل يديها ، من ماء إبريق نحاسي . وأدرك « عباس » أن الله قد رزقه بوليد . ورأته أخته ، فتوقفت عن صب الماء من الإبريق ، ووضعت كفها على فمها ، وأطلقت زغرودة ممتدة وعالية . وأشرق وجه « عباس » ، واجتاحته فرحة غامرة ، ونهض الطبيب ، وصافح « عباس » مهتئاً ، قائلاً له :

- بورك لك فى ابنك يا عباس ، أى اسم ستسميه به ؟

فقال له « عباس » برجاء :



- سَمِّهِ أَنْتَ يَا طَبِيبَ قُرْطَبَةَ ، فَقَدْ وَهَبَهُ اللَّهُ الْحَيَاةَ عَلَى يَدَيْكَ .

فَقَالَ لَهُ الطَّبِيبُ :-

- سَأُسَمِّيه إِذْنُ « خَلْف » . خَلْفُ بْنُ عَبَّاسٍ . وَسَيَكُونُ خَيْرَ خَلْفٍ ، لَخَيْرِ سَلَفٍ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

وَضَحِكَ الطَّبِيبُ وَقَالَ لِأَخْتِ « عَبَّاس » :

- أَتَعْرِفِينَ . هَذَا الْوَلِيدُ ، هُوَ أَوَّلُ مَوْلُودٍ يُوَلَدُ ، لِأَحَدِ الْعَامِلِينَ فِي الزَّهْرَاءِ .

### قريباً من السحب

شَبَّ « خَلْفٌ » وَنَمَا ، فِي بَيْتٍ مِنْ هَذِهِ الْبُيُوتِ الْمُؤَقَّتَةِ ، الَّتِي أُقِيمَتْ لِعُمَّالِ الزَّهْرَاءِ ، فِي سَفْحِ جَبَلٍ أَسْوَدَ ، تَتَغَيَّرُ أَلْوَانُهُ فِي دَرَجَاتِ الضَّوئِ ، وَالظَّلَالِ ، فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَعَبَّرَ فَصُولَ السَّنِينَ ، وَكَانَ الْعَمَلُ يَجْرِي فِي الْجَبَلِ عَلَى قَدَمٍ وَسَاقٍ . وَكَانَ « خَلْفٌ » يَطِيبُ لَهُ أَنْ يَصْعَدَ بَيْنَ أَحْجَارِ الْجَبَلِ ، مِنَ السَّفْحِ ، إِلَى الْقِمَّةِ ، وَيَجْلِسَ هُنَاكَ ، قَرِيباً مِنَ السُّحُبِ ، يَمُدُّ بَصَرَهُ فِي كُلِّ الْأَنْحَاءِ .

وَحَفِظَ « خَلْفٌ » الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ ، وَالْأَحَادِيثَ ، وَتَعَلَّمَ الْقِرَاءَةَ وَالكِتَابَةَ ، وَمَبَادِيَ الرِّيَاضِيَّاتِ ، وَتَعَلَّمَ مِهْنَةَ النَّقْشِ ، حَفْراً غَائِراً وَبَارِزاً ، عَلَى أَيْدِي مُسَاعِدِي أَبِيهِ ، ثُمَّ تَرَقَّى لِيتَعَلَّمَ أَسْرَارَ الْمِهْنَةِ مِنْ أَبِيهِ نَفْسِهِ . وَصَارَ « خَلْفٌ » مَاهِراً فِي الْحِرْفَةِ ، مَهَارَةَ أَبِيهِ ، وَزَادَ عَلَيْهِ فَرَاخٌ يَتَكَبَّرُ تَصْمِيمَاتٍ جَدِيدَةً لِلزَّخْرَفَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ ، وَيَعْرِضُهَا عَلَى أَبِيهِ ، فَيُثْنِي ( يَمْدَحُ ) عَلَى خِيَالِهِ الْوَاسِعِ ، وَابْتِكَارَاتِهِ الْجَدِيدَةِ ، لِزَخَارِفِ الْخُطُوطِ الْهَنْدُسِيَّةِ ، وَالتَّوْرِيقاتِ ، وَحُسْنِ اخْتِيَارِهِ لِلْأَلْوَانِ .

وَقَالَ « عَبَّاسٌ » يَوْمًا ، لِابْنِهِ « خَلْفٌ » :

- سَتَرْتُ هَذِهِ الْمِهْنَةَ يَا بُنَيَّ مِنْ بَعْدِي ، فَعَلَيْكَ فِيهَا بِالْإِخْلَاصِ ، وَالذِّقَّةِ ، قَدْرَ طَاقَتِكَ . وَاحْتَرِ دَائِماً مُسَاعِدِيكَ ، مِنْ خَيْرَةِ الْعُمَّالِ ، وَأَعْطِهِمْ أَجُورَهُمْ ، فِي خَتَامِ كُلِّ يَوْمٍ ، قَبْلَ أَنْ يَجِفَّ عَرْقُهُمْ ، عَلَى الْجَبَاهِ ، وَكُنْ بِجَوَارِهِمْ فِي الْأَخْزَانِ وَالْأَفْرَاحِ ، نَمَدَّ لَهُمْ يَدَ الْعَوْنِ ، فِي كُلِّ حَالٍ .

### طموح خلف

لَكِنَّ « عَبَّاسٌ » فَاجِئاً أَبَاهُ ذَاتَ يَوْمٍ ، وَكَانَ قَدْ بَلَغَ الْعَشْرِينَ مِنَ الْعُمُرِ ، قَائِلاً بِهْدُوءٍ :



بالجمال . لكن مع المريض ، أنت تتعامل مع الحياة ، مع الجسد  
البشري ، المليء بالغروق والأعصاب .

وسكت « عباس » لحظة ، ثم قال :

- حفظت القرآن يا خلف ، ودرست من الحديث واللغة  
والرياضيات ، ما يُنير لك عقلك في مهنتك ، وحياتك ،  
وعلاقتك بالناس ، وحسبك هذا من المعرفة ، كنقاش ، لقد  
صرت ماهراً في النقش يا عباس ، وتكسب من الرزق ما يكفي  
حاجتك ، ويزيد عليها .

وكانت أم « خلف » وأخته جالستين ، تسمعان  
حوارهما . وقالت الأم لزوجها « عباس » :

- فرغ خلف ، حين مائت جارتنا ، وهي تضع وليدها .  
وعجزت القابلة عن إنقاذه وإنقاذها .

فقال « عباس » لخلف :

- ألهذا السبب ، تفكر أن تكون طبيباً ؟ أظن أنك  
لو صرت طبيباً ستُنقذ الجنين وأمه ؟ الأطباء يا بُنى يتركون  
ذلك للقابلات ، مثلما يتركون الجراحات للحجامين  
( الحلاقين ) !!



- أبي . أريد أن أتعلم الطب ، على يد صديقك « عيسى  
ابن اسحق » .

فقال له « عباس » :

- ماذا ؟ الطب طريقه صعب يا بُنى . وخطؤه يعنى  
الموت ، أو العاهة . الخطأ في نقش الأحجار أهون كثيراً  
يا بُنى . في النقش أنت تتعامل مع الجماد ، لتُنطق الكتلة



فقال « خَلَفَ » بعزمٍ أَقْلَقَ أَبَاهُ :

- ذَلِكَ هُوَ خَطُّهُمْ يَا أَبِي . حِينَ أَصِيرُ طَبِيباً ، سَأَفْعَلُ  
بِيَدِي النَّقْشَ هَاتَيْنِ ، مَا يَهْرَبُ الْأَطْبَاءُ مِنْ فَعْلِهِ ، وَمَا يَتْرَكُونَهُ  
لِلْقَابِلَاتِ ، وَالْحَجَّامِينَ . لَمْ أَتَرَفَّعْ عَلَى الْحَجَرِ ، فَكَيْفَ أَتَرَفَّعُ  
عَلَى أَجْسَادِ النَّاسِ ، وَحَيَاةِ النَّاسِ . الدِّينُ يَا أَبِي طِبُّ الْأَرْوَاحِ ،  
وَالطَّبُّ يَا أَبِي حَيَاةُ الْأَبْدَانِ . أَمَّا النَّقْشُ ، فَلَا يَزِيدُ عَنْ كَوْنِهِ  
زِينَةً لِلْجَدْرَانِ .

وَجِمَ « عَبَّاسٌ » ، حِينَ سَمِعَ رَأْيَ وَلَدِهِ فِي النَّقْشِ ،  
لَكِنَّهُ ، فِي ذَاتِ اللَّحْظَةِ ، فَرِحَ لَطُمُوحِ وَلَدِهِ ، وَعُلُوِّ هِمَّتِهِ ،  
وَقَالَ :

- غَدَاً ، سَأُصَحِّبُكَ لِلِقَاءِ عَيْسَى بْنِ إِسْحَاقَ . مَهَرْتَ فِي  
النَّقْشِ ، لَكِنَّكَ لَمْ تَحِبَّهُ بَعْدَ ، وَأَرْجُو أَنْ تَمَهَّرَ فِي الطَّبِّ ، بِقُدْرِ  
حُبِّكَ لَهُ الْآنَ .

### انظر واسمع أولاً

فَرِحَ « عَيْسَى » بِقُدُومِ « خَلَفٍ » إِلَيْهِ ، لِيَدْرُسَ الطَّبَّ عَلَى  
يَدَيْهِ . وَقَدَّمَهُ إِلَى تَلْمِيذِهِ ، الطَّبِيبِ الشَّابِّ « أَحْمَدَ ابْنَ  
حَسَدَايَ » . وَقَالَ لَخَلَفٍ :

- اذْهَبْ أَوَّلًا مَعَ « أَحْمَدَ » ، وَتَجَوَّلْ مَعَهُ فِي الْبِيمَارِسْتَانِ ،  
بَيْنَ الْمَرْضَى ، وَالْأَسْرَةِ ، وَمَكْتَبَةِ الْبِيمَارِسْتَانِ ، وَصَيْدَلِيَّتِهَا ،  
وَقَاعَةِ الْجِرَاحَاتِ الَّتِي تَسِيلُ فِيهَا الدَّمَاءُ ، تَحْتَ « مَبَاضِعِ »  
( مَشَارِطِ ) الْحَجَّامِينَ . ثُمَّ عُدْ إِلَيَّ ، فَقَدْ تَعَدَّلُ عَنْ رَغْبَتِكَ فِي  
تَعَلُّمِ الطَّبِّ ، بَعْدَ أَنْ تَرَى مَا يُرْوَعُكَ ( يُخِيفُكَ ) ، وَتَسْمَعُ  
أَنِينَ الْمُتَأَلِّمِينَ .

وَصَحَبَهُ « أَحْمَدُ » ، وَتَجَوَّلَ وَإِيَّاهُ فِي الْبِيمَارِسْتَانِ ، جَنَاحاً  
جَنَاحاً ، وَقَاعَةً قَاعَةً . وَرَأَى « خَلَفٌ » أَجْنَحَةً لِلرِّجَالِ ،  
وَأَجْنَحَةً لِلنِّسَاءِ ، وَقَاعَاتٍ شَتَّى ، لِأَنْوَاعِ الْأَمْرَاضِ ،  
وَالْتَجْهِيزِ ، وَالْحَوَادِثِ الْعَارِضَةِ ، وَالِاسْتِقْبَالِ . وَرَأَى صَيْدَلِيَّةَ  
الْبِيمَارِسْتَانِ ، وَبِهَا أَدْوِيَّةٌ وَعَقَاقِيرُ ، وَقَوَارِيرُ . وَرَأَى مَكْتَبَةَ  
ضَخْمَةً تَضُمُّ مَخْطُوطَاتِ كِبَارِ الْأَطْبَاءِ ، مِنْ شَرْقِ الْعَالَمِ  
إِلَى غَرْبِهِ ، وَبَيْنَهَا نَسَخٌ مِنْ كُتُبِ الطَّبِيبِينَ : أَبُقْرَاطُ ،  
وَجَالِينُوسُ .

وَرَأَى أَقْسَامَ الْمُجَانِينَ ، وَالْمَجْدُومِينَ ، وَعَجِبَ حِينَ سَمِعَ  
بِالْقُرْبِ مِنْهُمْ ، أَصْوَاتَ عَزْفِ جَمِيلٍ ، يَتَدَفَّقُ إِلَيْهِمْ مِنْ فَنَاءِ  
الْبِيمَارِسْتَانِ ، عَبْرَ النِّوَافِذِ وَالْأَبْوَابِ .



ودخل « خلف » مع « أحمد » غرفة الجراحات ، ورأى بها « خلف » منضدة عمليات خشبية ، مفروشة بمرتبة وملاءة بيضاء ، وبجانبها منضدة صغيرة ، عليها قطع من الاسفنج ، ودوائر سوائل ملونة ، وأدوات جراحة قليلة العدد ، بعضها مصنوع من الذهب ، وبعضها مصنوع من الفضة . وكانت جذران الغرفة مطلية بالجنس الأبيض ، وعارية الجدران . وبها نوافذ زجاجية ، ساطعة الضوء ، تطل على الفناء ، ومن سقفها تتدلى مشكاة زيتية ، ذات سلاسل ، تنحدر من بكرية ، وترفع وتخفض ، حسب الحاجة ، فيسطع ضوءها فوق منضدة الجراحة .

وعاد به « أحمد » ، إلى حيث يجلس الطبيب « عيسى ابن اسحق » .

## الصبر .. والخيال

رآه « عيسى » مضطرباً مما رآه ، فقال له :

- أزعجك ما رأيته يا خلف ، سمعت أنين المرضى بأذنيك ، ورأيت ما عليهم من ضمادات ، بها آثار دماء .

فقال له « خلف » :

- لم يخفني ما رأيته يا سيدي الطبيب ، زادني ما رأيته عزماً على أن أكون طبيباً ، يخفف آلام المرضى ، ويُدأوى الجراح .

فابتسم « عيسى » ، وقال له :

- الحمد لله ، ولستوف يفيدك ، في صناعة الطب ، ما تعلمته كناقش ، من صبر ودقة وخيال ، فالصبر والدقة هما عدة الطبيب في مهنته ، والخيال وسيلة العقل لابتكار الجديد في مهنة الطب ، الذي لم يقل به ، ولم يصل إلى معرفته ، من قبله من الأطباء .

## المعرفة والأخلاق

وطوال سنوات ، عرف « خلف » من أطباء بيمارستان قرطبة ، الكثير من المعارف الطبية والكيمائية ، عن الأعشاب وآثارها في الشفاء ، وعن الأدوية المفردة والمركبة ، المتخذة من النبات ، والمعادن ، والأحجار ، وأجزاء الحيوان ؛ وعرف الكثير عن طب « جالينوس » ، و « أبقراط » ،



و « ديسقوريدس » ، و « ابن سينا » ، و « الرازي » ، وعرف كيف ومتى يجرب الدواء في الحيوان ، قبل استخدامه في علاج الإنسان .

ووعى « خلف » في بیمارستان تقاليد مهنة الطب ، من حسن الملبس ، إلى طيب الرائحة ، إلى نظافة البدن والثوب ، ومن كتمان أسرار المرضى ، فلا يئوخ بشيء عنها لأحد ، ولا يفشي لهم هديانا قالوه تحت التخدير ، ووعى أن تكون رغبته في إبراء المرضى أكثر من رغبته في أجره كطبيب ، وأن يسوى في علاجه بين الصديق والعدو ، ويرغب في علاج الفقراء أكثر مما يرغب في علاج الأغنياء ، ووعى أن يكون عفيف النظر ، في منازل المرضى ، مأموناً على الأرواح ، فلا يصف دواء قتالاً ، ولا يعمله ، ولا يصف دواء للنساء يسقط الأجنة ، ولا للرجال يقطع النسل ، ويجهد قدر وسعته وطاقته ، في معرفة المريض ، ومرضه ، وعمله ، قبل أن يكتب الدواء ، ويحدد نظام الطعام ، وأن يقدم تشخيصه لمرض كل مريض إلى كبير الأطباء ، ويطلع عليه زملاءه من الأطباء ، وأن تكون لديه كل آلات الطب كاملة ، حاضرة بين يديه ، في بيته ، مثلما في بیمارستان .

وحمد « خلف » الله ، لأن الله قد خلقه على هيئة يتحتم أن تكون في طيب ، من تمام الخلق والتكوين ، وصحة الأعضاء ، وقوة الذاكرة ، وحسن الإدراك ، وهذوء الأعصاب .

### قسم أبقراط

وأتيحت الفرصة أخيراً لخلف ، ليقرن العلم بالعمل ، فمارس التشخيص والعلاج مع أطباء بیمارستان ، وصار فيهما ماهراً ، وبالدواء خبيراً ، وحريصاً على التدرج في العلاج ، من الغذاء ، إلى الأدوية المفردة ، إلى الأدوية المركبة .

وحان الوقت لمنح « خلف » إجازة الممارسة للطب ، في مجلس حاشد ، كان على رأسه « المحتسب » ( المسئول عن جودة الإنتاج وتنفيذ القوانين الآن ) وردد « خلف » وراء « المحتسب » قسم « أبقراط » : « برئت من قابض أنفس الحكماء .. إن خبأت نصحاً ، أو بذلت ضراً ، أو قدمت ما يقل عمله ، إذا عرفت ما يعظم نفعه ، .. والله شاهد على » .



## حفل في القصر

وكان « خلف » قد بلغ من العمر خمساً وعشرين سنة ، حين ودع الخليفة « عبد الرحمن الناصر » الدنيا لأهلها . وتولّى حكم الأندلس من بعده الخليفة « الحكم المستنصر الثاني » ، فورث دولة قوية الأركان ، موحدة المدن والقرى ، وخلافة أقيمت لأول مرة في الأندلس على يد أبيه « عبد الرحمن » ، خلافة قُمعت في ظلّها ثورات الثائرين الداخليّة ، وهزمت أمراء الشمال من الفرنجة في : نافار ، وقشتالة ، وليون ، بل وصاروا يلجأون إلى قرطبة لتحكيم خليفتها فيما ينشُب بينهم من صراعات وخلافات ، وصارت مدائن الشمال وقراه آمنة في الأندلس ، مثل مدائن الجنوب الأندلسي وقراه .

وبايع « خلف » مع المبايعين للحكم بالخلافة بعد أبيه ، وشهد في قصر الخلافة بقرطبة ، الحفل الذي أقيم لعيسى ابن اسحق ، بمناسبة تعيينه طبيباً للخليفة ، ووزيراً للصحة بين وزرائه ، إلى جانب كونه رئيساً للبيمارستان .

وفي هذا الحفل ، أعلن « الحكم » عزمه على جعل الأندلس في عهده منارة للعلوم وللمعارف ، وللآداب والفنون ، وقال لوزيره عيسى :

- أريد أن تجد لنا نظاماً يُراقب به المحتسب باعة الأدوية من العطّارين ، التي يبيعونها للناس ، ويراقب غشّ الأدوية في أيّ مكان .

ونظر « عيسى » إلى « خلف » ، فأشار له برأيه موافقاً ، وقال هامساً :

- سنجد حلاً لذلك يا سيدي الوزير .

## لكل مشكلة حل

بات « خلف » ليلته تلك ساهراً يفكر ، يستعرض جوانب المشكلة التي أثارها الخليفة الجديد ، ويبحث لها بذكائه وخياله ، عن الحلول .

وعند الظهر ، في اليوم التالي ، جلس « خلف » إلى الوزير « عيسى » ، وقال له :

- أرى يا سيدي الوزير ، أن نلصق أوراقاً مكتوبة على زجاجات الدّواء بها أسماء الأدوية والعقاقير .

فقال له « عيسى » :



- وماذا عن أقراص الدواء ؟

فقال له « خَلَف » :

- نَطْبَعُ أَسْمَاءَ الْأَدْوِيَةِ بِالنَّقْشِ عَلَى أَقْرَاصِ الدَّوَاءِ ، نَنْقُشُ  
الْأَسْمَاءَ مَقْلُوبَةً عَلَى قَوَالِبَ مِنَ الْعَاجِ أَوْ الْأَبْنُوسِ ، وَنَطْبَعُ بِهَا  
عَلَى الْأَقْرَاصِ ، مِثْلَمَا نَفْعَلُ مَعَ الْأَخْتَامِ ، . وَبِذَلِكَ لَا تُخْتَلِطُ  
الْأَقْرَاصُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ ، فِي الصِّيدَلِيَّةِ ، أَوْ عِنْدَ الْمَرِيضِ أَوْ عِنْدَ  
الْعِطَّارِ .

فقال « عَيْسَى » :

- وماذا نفعل مع العطارين يا خلف ، وَمَعَ الْقَائِمِينَ عَلَى  
الصِّيدَلِيَّةِ ، الَّذِينَ يَغْشَوْنَ الدَّوَاءَ ؟

فقال « خَلَف » :

- نَحْدِدُ لَهُمْ أَوَّلًا مَقَادِيرَ وَنَسَبِ الدَّوَاءِ ، فِي كُلِّ دَوَاءٍ ،  
وَنُلْزِمُهُمْ بِهَا بِوَسَاطَةِ الْمُحْتَسِبِ ، وَنَدْرِبُ لَهُ رِجَالًا مِنْ رِجَالِهِ ،  
عَلَى ذَلِكَ الْعَمَلِ ، وَنُلْزِمُ الْعِطَّارِينَ بِعَدَمِ إِفْشَاءِ أَسْرَارِ الدَّوَاءِ  
لِأَحَدٍ ، إِلَّا عَنْ طَرِيقِ طَبِيبٍ ، وَيَجَرِّدُهُمُ الْمُحْتَسِبُ مِنْ حَقِّ مُمَارَسَةِ  
الْمِهْنَةِ ، إِذَا غَشَوْا فِي تَرْكِيبِ الدَّوَاءِ .





فقال عيسى :

- أحسنت الرأي يا بُنَيَّ ، وأصببت . وغداً أجلسُ مع  
المحتسب ، لنضع نظاماً دقيقاً لذلك كله ، يُطبَّق في كلِّ أرجاء  
الأندلس .

### طبيب رقيق القلب

صمت « عيسى » برهةً ، ثم قال :

- أتعرف يا خلف ، لقد تمنيتُك لمهنة الطبِّ ، عندما لمست  
ذكاءك ، ورأيتُ صبرك ومهارتك ، وأنت تعملُ مع أبيك نقاشاً  
في مباني الزهراء .

وابتسم خلف ، وقال :

- عندي أمنيةٌ لمرضانا يا سيدي الوزير ، لو عرضتها على  
الخليفة ، سيجيبك إليها .

ونظر « عيسى » إلى « خلف » ، مُتظراً ما سوف يقوله .  
فقال :

- نجعلُ غذاءَ المرضى لحمًا ودجاجاً وضأنًا . فالغذاء يرفعُ

من مقاومة الجسم للمرض ، ويُعجل بالشفاء . ونجدد لهم  
الأثاثَ والفراش ، ونلبسُهم ثياباً نظيفةً . وحين يخرجُ المريضُ  
من المستشفى ، نُعطيه ثوباً ، ونقوداً يستعينُ بها ، إلى أن يعودَ  
إلى سابق عافيته ، وعمله ، قبل مرضه . ونجعلُ دواءَ الطبيبِ  
لمريضه في ورقتين ، ورقة تُعطى للمريض ، وورقة تُعطى لأهله ،  
ليذكروه بدوائه في مواعيدِهِ إذا نسي ، ويعدّوا له غذاءه المحدد  
له ، إذا قصر فيه .

فقال « عيسى » وهو يرنو بإعجابٍ إلى « خلف » :  
- وماذا أيضاً أيها الطبيبُ الرقيق القلب ، المرهفُ  
المشاعر ؟

فقال « خلف » :

- نجعلُ لكلِّ مجنونٍ خادمين ، يتناوبان على خدمته ،  
ينزعان عنه ثيابه كلَّ صباحٍ ، ويحمّمانه بالماء البارد ، ويلبسانه  
ثياباً نظيفةً ، ويفسّحانه في الهواء الطلق ، ويجلسانه بين العازفين  
للموسيقى .

فصاح « عيسى » :



- جميل ما تقوله يا خَلَف . لكن . أليس ذلك كثيراً على بيت المال ؟

فقال « خَلَف » :

- لكنه ليس كثيراً على أغنياء الأندلس يا سيدى الوزير .  
نفعل مثلاً يفعل أهل المشرق ، مع مساجدهم وبیمارستاناتهم .  
ندعو إلى تخصيص الأغنياء أوقافاً من أموالهم ، وعوائد أراضيهم  
وعقاراتهم ، لصالح المرضى فى بیمارستانات ، فى مدائن  
الأندلس .

وأذن الخليفة « الحَكَم » لعيسى بدعوة الناس ، كى يُوقفوا  
أراضي وأموالاً ، تعود أربابها إلى بیمارستانات .

### مدنية موسيقار

تزوج « خَلَف » وصار له ابن ، نذره حين يكبر لدراسة  
الطب ، كى يملاً فراغه من بعده ، فى تخفيف آلام المرضى .  
وصار « خَلَف » يجد وقتاً ، يقرأ فيه كتاب « الأغاني »  
للأصفهاني ، وكان « الحَكَم » قد بعث من اشترى له نسخة

منه من المشرق ، دفع ثمناً لها ألف دينار ذهبى ، ونسخ نسخة  
من الكتاب ، تُعار للقارئین فى مكتبة القصر بقرطبة .

وكان « زرياب » موسيقار المشرق ، الأسود اللون ، قد  
وفد على الأندلس ، فهِز أرجاءها بعزفه ، وفتياته المغنيات ،  
وبما ابتكره من وسائل المدنية للناس ، وصار « خَلَف » يجد  
وقتاً ، يذهب فيه إلى حفلات « زرياب » ، فى ساحة قصر  
الخلافة ، ويصحب معه زوجته وابنه وأخته وأمه وأبيه ، ويجلس  
مع ابنه وأبيه ، فى مجلس « الحَكَم » مع الوزراء والأدباء  
والعلماء ، وتجلس زوجته وأمه وأخته مع نساء القصر وراء أروقة  
وعقود مسدولة الأستار . وتعلمت زوجته وخادما بيته ، من  
فتيات « زرياب » ، ما تعلمته نساء الأندلس ، من قص  
لشعورهن فوق الحواجب على الجباه ، وكيف يأكلن بملاعق  
وشوكات خشبية مجلوبة من لبنان ، وكيف يشربن من أوانى  
الخزف ، المثلجة فى الهواء الطلق ، فى الليل البارد ، والمعطرة  
بقطرات من ماء الورد ، وكيف يجلسن على مقاعد ، إلى مناضد  
الطعام ، التى بُسطت فوقها المفارش البيضاء . وعلمهن  
« خَلَف » أن يُطلن المضغ للطعام ، وأن يتوقفن عن الكلام  
أثناء الأكل ، حتى يسهل هضمهن له ، فلكل عمل وقته



الخاصّ ، مثلما هو عند « زرياب » ، وفَتَيَاتِ « زرياب » .

### الجسد ليس رخاماً

وفُوجِيءَ « عيسى » ، ذاتَ نهارٍ ، بدُخُولِ « خَلَفٍ »  
عليه ، قائلاً له في اضْطِرَابٍ :

- أحوالُ المرضى من المصابين بالأورامِ يا سيدي الوزير ،  
تُورِّقُ ليلى .

فقال له « عيسى » :

- ولمَ أيها الطبيبُ ؛ الحجامون يشقونها ، ويدأوونها  
باللِّبْحَاتِ ، والكَيِّ بالنَّارِ .

فقال له « خَلَفٍ » :

- ذلكَ يا سيدي الوزير ، هو ما يُرْعِجُنِي . فالحجامون  
لا يعرفونَ التشريحَ ، وجراحاتهم محدودةٌ بسطحِ الجسدِ ، حتى  
لا يقطعوا عَصَباً ، أو عِرْقاً ، وهم لا يفتحونَ صدرًا ولا بطنًا .  
وأدواتُ الجراحةِ من ذهبٍ وفضةٍ ، لا يحسنُ بها القطعُ  
والشَّقُّ ، وتبردُ حرارتُها بسرعةٍ .

فقال له « عيسى » :

- وتريدُ أنْتِ أن تمارِسَ الجراحةَ بيدك ، وتفعلُ ما يَأْنفُ  
كُلُّ الأطباءِ من فعله .

فقال له « خَلَفٍ » :

- نعم . وأريدُ أن يمارِسَ أطباءُ سِوَايَ الجراحةَ بأيديهم ،  
إذا قبلوا ذلكَ . ويتحمَّلُ الطبيبُ المسؤوليةَ أمامك إذا أخطأَ تنفيذَ  
الجراحةِ ، والإعدادَ لها ، أما الآجالُ ( الأعمار ) فهي بيدُ الله  
وحده .

فقال له « عيسى » :

- وأدواتُ الجراحةِ يا خَلَفٍ قليلةُ العددِ ، لا تصلحُ  
إلا لسطوحِ الجسدِ . فهي من ذهبٍ وفضةٍ ، ولا تُروقُ لك .

فقال له « خَلَفٍ » :

- نعم يا سيدي .

فقال له « عيسى » :

- إذا وجدتِ أولاً آلاتَ جراحةٍ مُناسبةٍ ، ومن معدِن  
لا يصدأُ ، مثلما لا يصدأُ الذهبُ والفضةُ . أذنْتُ لك بما تطلبُه



منى ، بعد أن يجيز مجلس الأطباء في بیمارستان ، ما تطلبه  
منا . فجسد الإنسان حى ، و ليس رُخاماً ولا خشباً  
ولا حجراً ، ولأن نترك مَرَض المريض لله ، خير من أن نجرو  
عليه ، ونخطيء في علاجه .

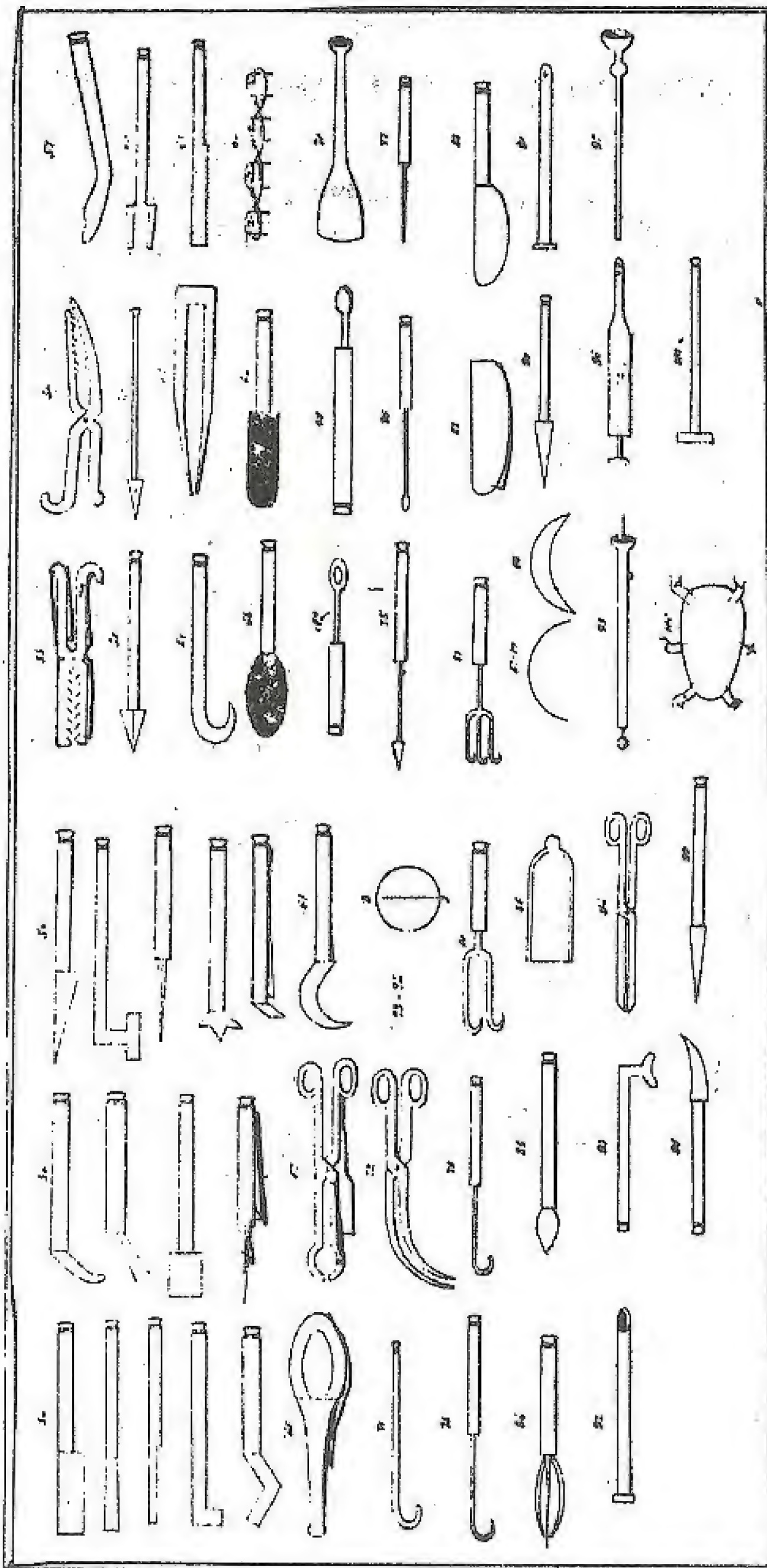
### آلات الجراحة

وقضى « خلف » شهوراً ، وليالى ، ساهراً ، تحت قنديل  
مضاء ، يدرس من جديد كل ما يتصل بالجراحة ، والأحوال  
التي تحتاج فيها الأمراض للجراحات ، وطرق إجراءاتها ، في ضوء  
ما يعرفه من معارف التشريح ، وجغرافية العروق والأعصاب  
والأعضاء في الجسد البشرى ، ويقدر لها أشكال الآلات  
الجراحية ، اللازمة في كل جراحة ، والمعدن الذي تتخذ منه هذه  
الآلات ، وتلك الأدوات .

وهذه عقله الفذ ، وعزمه القوى ، إلى معدن الحديد ،  
المطلى ، والذي ينبغي حفظه ، في القطن ، من الرطوبة  
والهواء ، وجلس إلى أوراق بيضاء ، مبسوطة تحت عينيه ،  
وراح يرسم بالمسطرة ، والمثلث ، والفرجار ، الآلات الجراحية



صورة عمرها ألف  
عام لبعض آلات  
الجراحة التي ابتكرها  
الزهرأوى لأول مرة .





التي يتخيّلها لكلّ جراحةٍ ، ويحدّد لها طولها ، وسُمكها ،  
ووظيفتها الجراحية .

و ذات صباح ، حمل « خَلَف » رسّومه لآلاته ، وذهب بها  
إلى حدّادٍ ماهرٍ في قرطبة ، وكان حدّاداً فطناً ( ذكياً ) ، ففهم  
غايةَ خَلَف ، وحدّد له « خَلَف » تكوين كلّ آلة ، وشفّرتها  
( حدّها القاطع ) ، ودرجة مَلاستِها ( نُعومتها ) ، وبدأ الحدّاد  
في صنّع آلاتٍ للجراحة من الحديد ، آلاتٍ جاوزت عدّتها  
( عدّها ) المائتين ، لا عهد لأحدٍ بها من قبل ، في كلّ أرجاء  
الأرض . وظلّ « خَلَف » جالساً إلى جانبهِ ، يُتابعهُ ، ويُعينهُ  
ويُساعدُهُ ، ويبدى ملاحظاته له .

وحمل « خَلَف » أدواته ، بخرصٍ ، في صُنْدُوقٍ ، في لفّةٍ  
من القُطْنِ الناصع البياض ، وذهب بها إلى أستاذه « عيسى » ،  
ومجلس الأطباء ، ذات صباح .

### معك دعوات المرضى

استمع « عيسى » والأطباء في اثبهار ، إلى محاضرة  
« خَلَف » ، عن آلاته الجراحية ، طوال النهار ، وشغله شرّحه ،

وعرضه لآلاته ، عن دخول « الحَكَم » بنفسه ، إلى مجلس  
الأطباء ، وجلوسه جانباً ، في مكانٍ غير ملحوظ بآخر المجلس ،  
مع عشرات الأطباء .

وحين فرغ « خَلَف » من محاضرته ، فوجيء بتصفيق  
الأطباء له ، وتزاحمهم حوله ، مصافحين إيّاه ، ومهنئين له ،  
بإبداعاته الجراحية . وحين هدأوا ، دُهِشُوا ، وهم يرون الخليفةَ  
« الحَكَم » يتقدّم من « خَلَف » ويعانقه ، ويقبله بين عينيه ،  
يقول له :

- أرجو أن تتفنّن في جراحاتك ، مثلما تفنّنت في عمل  
هذه الآلات ، وأن تنتهي على يدك صفحة ممارسة الحجامين  
للجراحة ، ومعك يا بُنَيّ دعوات كلّ مريض يُشفي على  
يدك .

### أبو الجراحة

وبدأ « خَلَف » يمارس عمله كأوّل طبيبٍ جراح ، عرفته  
الدنيا ، يعاونه أطباءٌ مساعِدُونَ ، يعرفون كيف يمدّونه بآلات  
الجراحة ، وكيف يساعِدُونه في تنفيذ الجراحة آلة بعد آلة ،



ويجففون له عرقه ، ويتعلمون منه مهارات يديه من بتر ، وشق ، وفصد ، وسلخ ، وكشط ، وحقن . ويجعلون له المكاوي المتعددة الأنواع ، في اللحظة المطلوبة ، على الدرجة التي لا ينصهر فيها الحديد ( ألغى استخدام الكي في عصرنا الحديث ) .

وشُفِيَ على يدَي « خَلَف » كثير من المرضى ، وتدرَّب أطباء جراحون على يديه ، من كلِّ بيمارستانات الأندلس ، وشاركوه في عملياته الجراحية ، وأساليبيها ، في جراحات الشرايين ، واستخراج الحصى ، والعيون ، والأذن ، والأنف . والحنجرة ، والصدر ، والبطن ، والقصبة الهوائية ، والسرة ، والأورام ، والعقد الليمفاوية ، والمجاري البولية والتناسلية ، والولادات العسيرة ، وفي علاج القروح ، وإيقاف النزيف ، والاستسقاءات ، وفي طرق استخدام خيوط الجراحة ، وكميات التخدير ، ومداها . فله في هذا كله اكتشافات جراحية ، وعلاجية ، لم يسبقه إليها أحد .

وطار صنيث ( سُمعة ) « خَلَف » على ألسنة الأطباء ، والمرضى ، والعلماء ، والأدباء ، والتجار ، والرحالة ، في أرجاء العالم الإسلامي . ووصلت أخبار نبوغه وابتكاراته إلى أطباء

أوربا ، شرقاً وغرباً ، وشمالاً وجنوباً ، فتوافدوا مثل الأطباء المسلمين ، على قُرطبة ، يتعرفون ، في أول مدرسة عالمية للطب ، على آلات الجراحة ، ويشاهدون بأعينهم أساليب الجراحة الجديدة ، ثم يعودون إلى بلادهم ، بعد شهر أو سنين ، حاملين معهم فنَّ وآلات الجراح العربي المسلم : « خَلَف ابن عباس » ، ابن الزهراء العبقرى .

ودعا هذا النبوغ المدهش ، الخليفة « الحكم » إلى إسناد رئاسة بيمارستان قُرطبة ، إلى « خَلَف بن عباس » ، فقد كبر أستاذه « عيسى » في السن ، وحسبه قيامه بدوره كطبيب ووزير للخليفة « الحكم » . وقال « الحكم » لَخَلَف ، في محفل إسناد هذا المنصب إليه :

- من اليوم أيها الطبيب الأمين ، سيكون لقبك هو « الزهراوي » ، فأنت ابن الزهراء ، وأول وليد بها ، وهو لقب لن يحمله أحد سواك ، على مرَّ العصور .

## درة الجبل

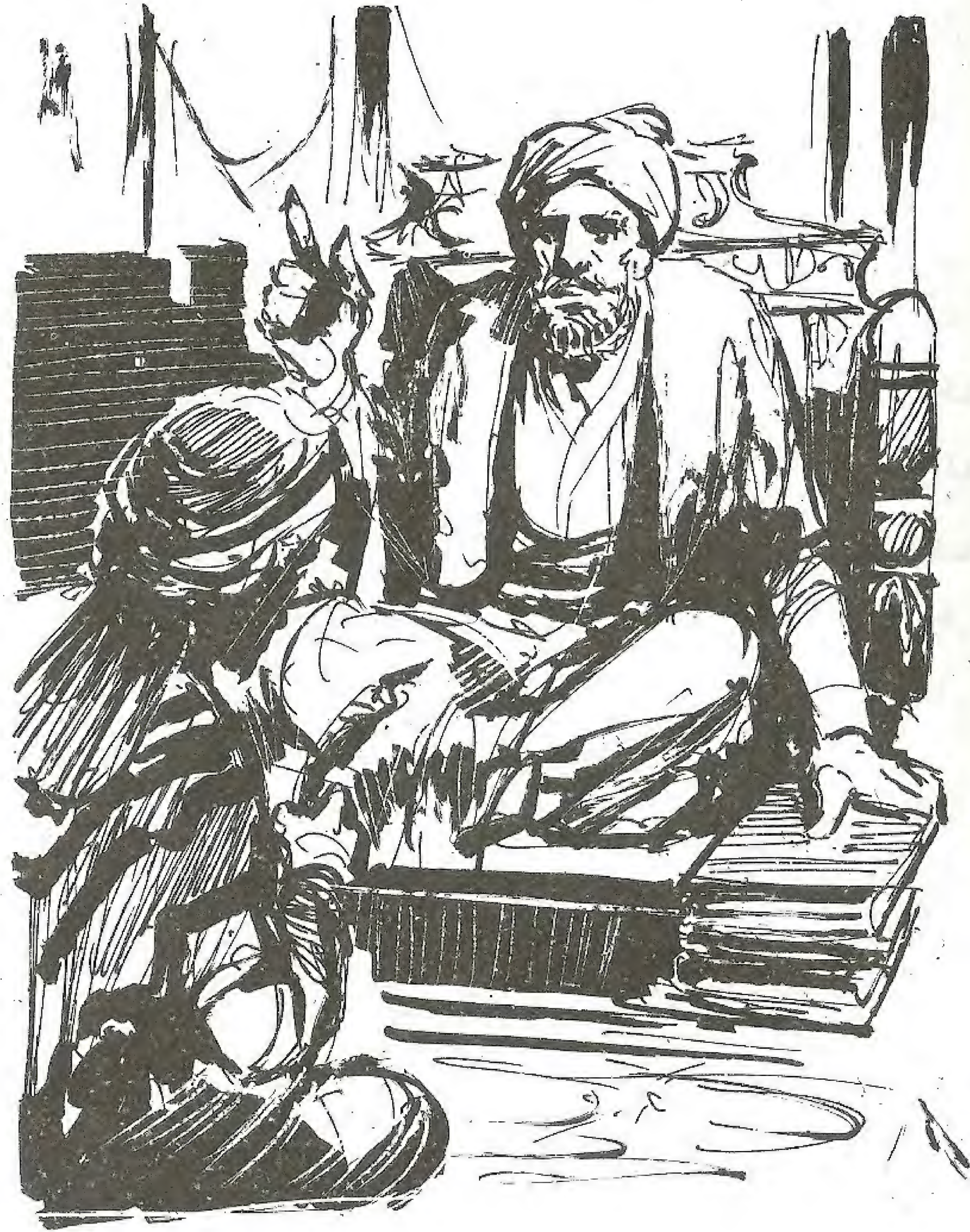
كان المسلمون قد أُخرجوا من ساحل « بروفانس »



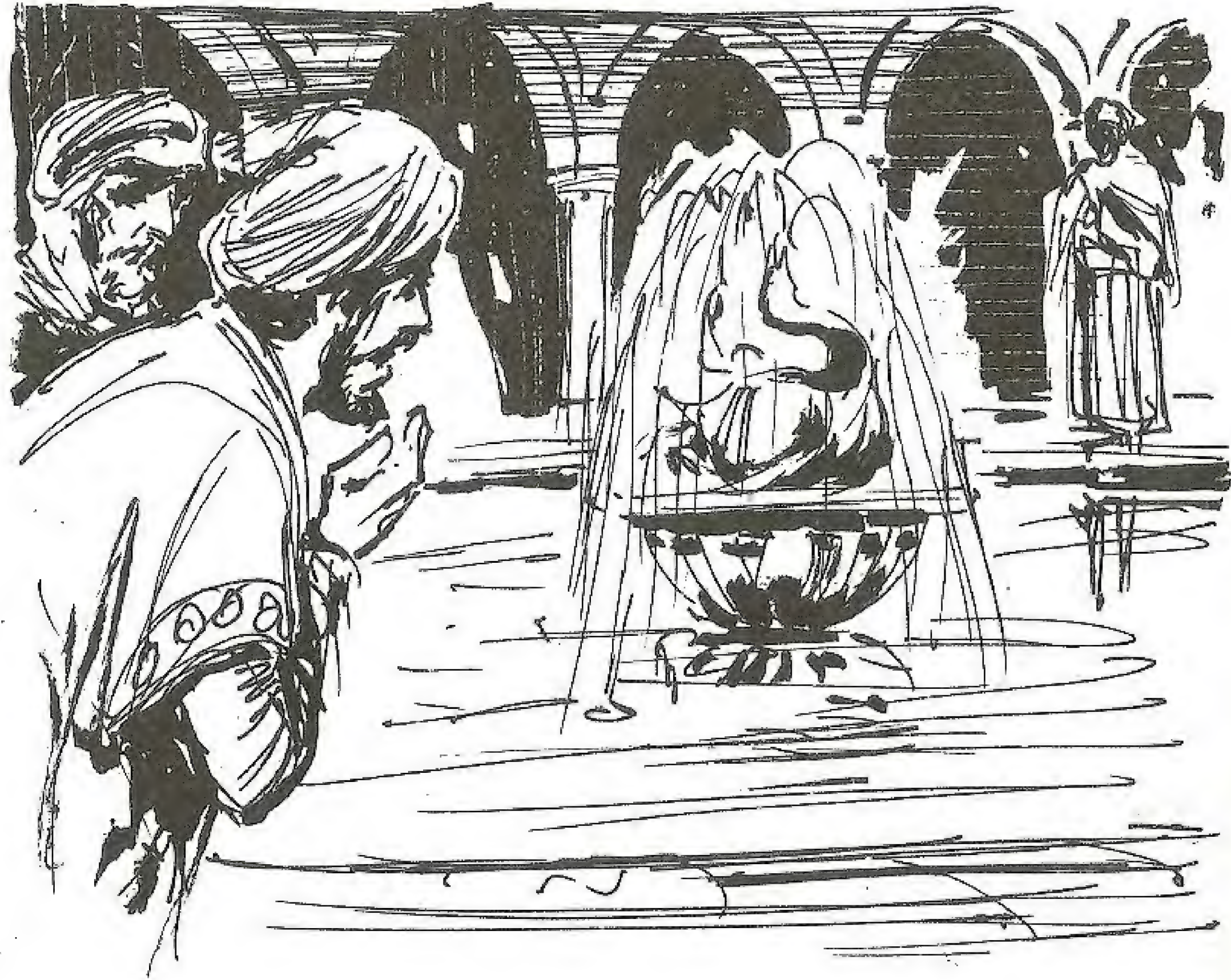
( جنوبى فرنسا ) ، قبل عامٍ ، وكان بناءُ الزهراءِ قد تمَّ قبل عامٍ ، بعد أربعين سنةً من العملِ المتواصل ، للمهندسين والبنائين والفنانين . وجاءت الزهراءُ كأجمل ضاحيةٍ ، وأكبر ضاحيةٍ لمدينةٍ ، فى زمانها ، وتجسدت كدرةٍ تسطع فى ضياءِ الشمس ، وتحت نجومِ الليل ، حول « جبل العروس » ( مرتفعات سيرا مورينا ) من سفحه إلى قمته . وكان جبلاً أسود غطاءه البستانيون الأندلسيون بأشجار اللوز ، فأحالت زهورها البيضاء لونَ الجبل ، إلى مشهدٍ يُعجب الناظرين .

وكانت الزهراء ، بموقعها الجبلى الفريد ، على بعد ثلاثة أميال ، فى الشمال الغربى لقرطبة ، ذات مستويات ثلاثة متدرجة ، فى كلٍّ مُستوى منها حى من الأحياء ، لفئةٍ من السكان ، ولكل حى سورٌ ، يقوم عليه الحراس ، ويغلقون أبوابه مع الليل ، ويفتحونه مع آذان الفجر ، ولا يمر من هذه الأبواب أحد ، بين هذين الوقتين ، إلا بإذن موقع من كبير الحراس .

وكان الحى الأدنى يضمُّ الدور والأسواق ، ويتوسطه مسجدُ الزهراء ، والحى الأوسط يضمُّ القصور العديدة ، ويتوسطها قصرُ الروضة ( قصر الزهراء ) ، وفيه يُقيم الخليفة







قصر الروضة ، فدخله معا ، بعد صلاة العشاء ، في مسجد الزهراء . ورأى « الزهراوى » قصراً باهراً كُسِيتْ جدرانه بالرخام ، وطُعمت نقوشه وزخارفه بالذهب والفضة ، وفي نواحيه الفسيحة برك وأحواض ، ملاءى بالمياه ، والنوافير تدفع إليها بمزيد من المياه ، لا تفيض حولها قط ، من أفواه تماثيل لحيوانات ، وقد تَرَامَتْ وارتفعت حولها الأشجار المزينة بالأنوار . ورأى « الزهراوى » أعمدة من الرخام تعلو شاهقة ، تحمل قباباً في سقوف القصر ، أربعة آلاف وثلاثمائة عمود ،

« الحكم » ، والحيّ الأعلى به رياض الزهراء ، وحدائقها ، وبساتينها ، ومنتزهاتها ، الملاءى بالحشائش والأشجار والشجيرات ، والمماشى المعبّدة بالحصى والأحجار ، وأحواض الزهور المتعدّدة الألوان .

وكانت المياه تصل إلى الزهراء في قناة مذهشة ، يبلغ طولها ثلاثين كيلو متراً ، تحمل المياه إلى الزهراء ، من نهر الوادى الكبير . وكانت النواعير ( السواقي ) ترفع المياه من مستوى القناة ، إلى أحواض أعلى ، فأعلى ، إلى أن تتدفق في بساتين المستوى الأعلى ، وتنحدر مرة أخرى عائدة إلى القناة ، وفي صعودها ونزولها يأخذ سكان الزهراء من الماء ، ما يشاءونه في الليل والنهار ، لما يشاءونه من الأغراض .

وصار مسجد الزهراء ، الذى فرشت أرضه بالرخام الملون ، مثل المسجد الجامع بقرطبة ، مدرسة للعلم ، كما هو مسجد للصلاة .

## القصر المسحور

ودعى « الزهراوى » مع أبيه ، للقاء الخليفة الحكم في



تتدلى منها القناديل ، وتسطع كلها بأنوار متعددة الألوان ،  
والدرجات .

وتوقف « الزهراوى » مع أبيه ، أمام بركة ملاءى بالزئبق ،  
صار يتغنى بها الشعراء فى الأندلس بأسرها . وأقبل الخليفة ،  
ورأهما مبهورين بمراى بخيرة الزئبق ، فزادهما انبهاراً ، حين  
أشار إلى أحد رجال القصر ، فدفع بطرف عصاه فى البركة  
عابثاً ، فتأرجح سطح بركة الزئبق ، واهتز كما الموج ،  
وسجف ( استار ) الحرير ، بضياءات خاطفة ، كخيوط  
البرق ، تخطف الأبصار ، وانتفض « الزهراوى » وجلا  
( خائفا ) ، ولفت بصره بعيداً عن الوميض ، وكأنه قد حدق  
لحظة خاطفة فى عين الشمس . واقترب منهما الخليفة ضاحكاً ،  
وهو يقول لعباس :

- لم تخطر هذه الفكرة لك على بال يا عباس . استعزنا  
فكرة هذه البركة من مصر ، من بحيرة الزئبق التى كانت  
لخمارويه ، فى سالف الأيام .

### كن على حذر

ودعاهما الخليفة فجلسا معه . وقال الخليفة للزهراوى :

- ودعنا عيسى يا زهراوى ، وصعدت روحه إلى بارئها  
( خالقها ) . وقد جعلتك فى مكانه ، طبيباً للقصر ، ووزيراً مع  
وزرائى ، فنظم وقتك بين عملك فى بیمارستان ، وبين عملك  
هنا فى هذا القصر ، يوم هنا ، وأيام هناك ، ومن كان بحاجة  
عاجلة منا سعى إليك ، حيث أنت .

ثم ضحك « الحکم » وقال للزهراوى :

- حدثنا الآن يا أبا القاسم ، عن أحلامك الأخرى للطب  
والأطباء ، فالعقل المبتكر لا يتوقف عن الابتكار والعطاء .

فقال « الزهراوى » :

- أفكر يا مولاي فى ثلاثة أمور : أن نعيد تدريب القابلات  
على فن التوليد ، وتعليمهن ما يلزمهن من العلم ، ونعلمهن  
جراحات التوليد ، فقد لا يسعفن طبيب بالحضور إليهن ، فى  
القرى والنجوع .

فقال « الحکم » :

- هذا أمر حسن ، فنفذه . والأمر الثانى :

فقال « الزهراوى » :



- إعدادُ مواسيَّاتٍ ( ممرضات ) يا مولاي ، يُوجَدُين مع الأطباء ، في البيمارستانات ، مُدَرِّباتٍ على خدمةِ المرضى ، يعطين لهم جرعاتِ الدواء ، ويقدمن وجباتِ الغذاء ، في المواعيد المحددة ، ويستنجذن لهم بعونِ الأطباء ، حين يتضاعف معهم المرضُ في ظلام الليل ، لسببٍ من الأسباب .  
فقال له « الحكم » :

- افعلْ ذلك أيضاً ، وكُنْ على حذر ، فسوف يقاومك الفقهاء ، وقد لا أكون حياً ، للوقوف بجانبك ، والدفاع عنك . والأمر الثالث ؟  
فقال « الزهراوى » :

- أن أضع كتاباً ، موسوعةً في الطب ، عن الأمراض وعلاجها ، والجراحة وأساليبها ، وآلاتِ الجراحة وأشكالها .  
فقال « الحكم » :

- حسناً تفعل ، ولا تؤجل ذلك لقادمِ السنين ، واجعل من مرّ الأيام وسيلةً للإضافة والتعديل والتحسين ، في كتابك هذا . أى عنوانٍ ستضعه له ؟  
فقال « الزهراوى » :

- التصريف .. لمن عجز عن التأليف .  
فقال « الحكم » :

- إقرن فيه إذن بين العلم والعمل . افعلْ في تأليفك ، ما فعله أبوك في رسمه لتصميماتِ الزخارف ، وما فعلته أنت حين رسمت أدواتِ الجراحة وآلاتها ، فلا شيء يوضح معارف العلم ، قدر الرسوم ، وهى أمرٌ بديع ، فى كتابٍ للطب ، ولم يسبقك إليه أحد .

وحين انتصف الليل نهض « الزهراوى » وأباه ، وودعهما « الحكم » عند بابِ القصر ، وترك الضيفان وراءهما ، فى القصر ، أربعمئة غرفة ، يشغلها جميعاً سكانُ القصر ، وضيوفُ الخلافة .

## نساء الأندلس

وأقدم « الزهراوى » فى البيمارستان على تدريب القابلات فصرن مولداتِ مؤهلات ، يعرفن الضرورى من التشريح ، وطرقِ التوليد ، وإجراءِ الجراحاتِ العاجلة ، لإنقاذِ الأجنة والأمهات .



وأقدم « الزهراوى » على إيجاد المواسيات ( الممرضات )  
لأول مرة في بیمارستانات الإسلامية ، وسارعت للعمل في  
المواساة ( التمريض ) زوجات وبنات الأطباء ، قبل سواهن من  
الزوجات والفتيات ، وأيدت نساء الأندلس بأسرها دعوة  
« الزهراوى » الإنسانية ، وأوقفن أى احتجاج للرجال . وكان  
أهل الأندلس أكثر جرأة وحرية في زمانهم من سائر الأقطار .

### الحصاد العظيم

وفيما وراء حدود البلاد الإسلامية ، خاصة في أوروبا ،  
في بلاد الغال ( فرنسا ) والرومان ، والجرمان ( ألمانيا ) والبلقان  
( شرق أوروبا ) ، ترددت دروس « الزهراوى » للأطباء من كل  
الأجناس : العلم مشاع ، وحق لكل إنسان ، ولكل الأجناس ،  
في كل الأزمان . ومن حجب علما فهو في النار . ومن احتكر  
علما أو سرا من أسرار العلم فهو في النار .

وراح أطباء تلك البلدان يمارسون سرا حينا ، وعلانية حينا  
آخر ، إجراء الجراحات ، فقد كان البابوات ( آباء الكنيسة ) ،  
يحرّمون ، واحدا بعد آخر ، إجراء الجراحات ، لأنها ، فيما  
زعموه ، اعتداء على الجسد الذى خلقه الله . ويمارسون سرا ،

في كل الأحوال ، تعلم التشريح ، على أجسام الراحلين ،  
والحيوانات القريبة في تشريحها من الإنسان ، مثلما يفعل أطباء  
المسلمين ، وهو أمر آخر ، كان البابوات يحرمونه كل التحريم ،  
ويستنزلون اللغات على من يقوم به ، ويجرؤ عليه .

وكان المرضى في تلك البلاد الأوربية ، يتوجهون إلى  
كنائس رُسِمَت على زجاج نوافذها ، صورة « الزهراوى » ،  
رائد علم الجراحة ، ويتهلون إلى رب « الزهراوى » ليأخذ  
بأيديهم ، ويؤمن عليهم بالشفاء ، فيما سيجريه لهم الأطباء ،  
تلامذة « الزهراوى » من جراحات .

### لا يبقى سوى العلم

وكان « الزهراوى » قد بلغ من العمر أربعين سنة ، حين  
ودّع « الحكم » دنيا الناس ، ولقى وجه ربه ، فلم يهنا بالإقامة  
في قصر الروضة ، سوى عام واحد . وآلت الخلافة من بعده  
إلى ابنه « هشام الثانى » ، وصار « المنصور محمد بن عامر »  
حاجبا له ، ومستبدا ، كملك من الباطن ، بأمور الأندلس ،  
دون الخليفة الصغير السن ، فعاد بسلطة الحكم والخلافة إلى  
قصر الخلافة الأول في قرطبة ، وأهمل شأن « الزهراء » . وراح



يُنشِئُ لِنَفْسِهِ ضَاحِيَةً أُخْرَى أَسْمَاهَا « الزَاهِرَةُ » ، أَتَمَّ بِنَاءَهَا فِي أَرْبَعِ سَنَوَاتٍ ، وَنَقَلَ إِلَيْهَا دِيوَانَ الْحُكْمِ ، وَأَنْشَأَ بِهَا دِيوَانًا ( مَجْلِسًا ) لِلشُّعْرَاءِ وَالْأُدْبَاءِ ، وَنَدْوَةً لِلْعُلَمَاءِ ، وَاعْتَمَدَ عَلَى رِجَالٍ وَعُلَمَاءٍ آخَرِينَ ، غَيْرَ رِجَالِ « الْحَكْمِ » وَعُلَمَائِهِ ، فَاسْتَرَاخَ « الزَهْرَاوِيُّ » عَنْ دَوْرِهِ كَطَيْبٍ لِلْقَصْرِ ، وَوَزِيرٍ لِلْخَلِيفَةِ ، وَتَفَرَّغَ إِلَى نِهَايَةِ عَمَلِهِ لِإِنْجَازِ كِتَابِهِ : « التَّصْرِيفُ لِمَنْ عَجَزَ عَنِ التَّأْلِيفِ » ، وَأَبْقَاهُ « الْمَنْصُورُ » فِي مَنْصِبِهِ كَرْتِيسٍ لِلبَيْمَارِسْتَانِ ، لِكِفَائَتِهِ ، وَحُسْنِ سَمْعَتِهِ ، وَشَهْرَتِهِ الْوَاسِعَةِ فِي قَارَاتِ الْعَالَمِ الْقَدِيمِ الثَّلَاثِ .

وَكَانَ الْمَنْصُورُ ، عَلَى اسْتِبْدَاذِهِ بِالْحُكْمِ ، حَاكِمًا عَادِلًا ، وَمُحَارِبًا شُجَاعًا ، يَقْمَعُ كُلَّ الثُّورَاتِ ، وَيُرَدُّ عَنِ الْأَنْدَلُسِ كُلَّ الْغَارَاتِ ، وَبَلَغَتْ حُرُوبُهُ سَبْعَةً وَعَشْرِينَ حَرْبًا ، فِي سَبْعٍ وَعَشْرِينَ سَنَةً ، وَلَقِيَ « الْمَنْصُورُ » أَجَلَهُ بِمَدِينَةِ « سَالِمِ » وَهُوَ عَائِدٌ مِنَ الْغَزْوِ فِي الشَّمَالِ ، وَكَانَ « الزَهْرَاوِيُّ » قَدْ بَلَغَ مِنَ الْعَمْرِ سِتًّا وَسِتِّينَ سَنَةً .

وَاضْطَرَبَتْ أُمُورُ الْحُكْمِ وَالْخِلَافَةِ مِنْ بَعْدِ « الْمَنْصُورِ » ، وَتَصَارَعَ عَلَيْهِمَا أَبْنَاؤُهُ ، وَبَنُو أُمِّيَّةٍ ، إِلَى أَنْ انْفَرَدَ بِهَا « الْمَهْدِيُّ مُحَمَّدُ بْنُ هِشَامِ الثَّانِي » بَعْدَ سَبْعِ سَنَوَاتٍ ، فَخَرَّبَ ضَاحِيَتِي

« الزَاهِرَةُ » وَ « الزَهْرَاءُ » مَعًا ، وَرَثَاهُمَا الشُّعْرَاءُ مِثْلَمَا يَرِثُونَ الْمَمَالِكَ وَالْدُّوَل . فَهَمَسَ « الزَهْرَاوِيُّ » لِنَفْسِهِ : « لَا يَبْقَى سِوَى الْعِلْمِ » .

## ذُرْوَةُ الْمَجْدِ

عَاشَ « الزَهْرَاوِيُّ » فِي الْقَرْنِ الرَّابِعِ الْهَجْرِيِّ ، الْعَاشِرِ الْمِيلَادِيِّ ، وَفِي هَذَا الْقَرْنِ بَلَغَ سُلْطَانُ الْمُسْلِمِينَ السِّيَاسِيُّ وَالْحَرْبِيُّ ذِرْوَةَ مَجْدِهِ فِي الْأَنْدَلُسِ ، وَبِلَادِ الْمَغْرِبِ التَّابِعَةِ لِلْأَنْدَلُسِ ، وَبَلَغَتْ مَدِينَةُ قُرْطُبَةَ أَعْلَى دَرَجَاتِ الرِّقَى فِي الْعِمَارَةِ وَالثَّقَافَةِ ، وَازْدَانَ بِلَاطُ قُرْطُبَةَ بِصَفْوَةِ مِنَ الْعُلَمَاءِ . وَكَانَتْ الْفَتْوحَاتُ الْإِسْلَامِيَّةُ تَكْتَسِحُ أَفْرِيقِيَا الشَّرْقِيَّةَ بِأَسْرِهَا ، عَلَى حِينِ كَانَتْ تَخُومُ ( أَطْرَافِ ) الْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ تَنْكَمِشُ وَتَتَرَاجَعُ فِي : كَرِيتِ وَالشَّامِ ، وَمَا وَرَاءَ الْقُوقَازِ ، وَمَا وَرَاءَ النَّهْرِ ( شَرْقَى بَحْرِ قَزْوِينَ ) فَقَدْ تَسَلَّلَ الضَّعْفُ إِلَى الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ تَحْتَ سَيْطَرَةِ الْبُؤَيْهِيِّينَ الشَّيْعِيَّةِ فِي بَغْدَادَ ، وَمُنَاهِضَةُ الْخِلَافَةِ الْفَاطِمِيَّةِ الشَّيْعِيَّةِ فِي مِصْرَ ، وَالْقِرَامِطَةُ الشَّيْعِيَّةِ فِي شِبْهِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، لِلْخِلَافَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ .



## قرن الصفوة

وفي هذا القرن ، ظلت بغداد ، مع ذلك الضعف ، كعبة للثقافة في عهد البويهيين ، الذين شملوا برعايتهم البحوث العلمية في الفلك والرياضة خاصة ، وزاحمهم في رعاية الفكر الحمدانيون في حلب والموصل ، والسامانيون فيما وراء النهر ، والأمويون في قرطبة والأندلس .

ولمع من أئمة الفكر في هذا القرن : الجغرافي المؤرخ « المسعودي » كاتب الحوليات ، والمفسر « الطبري » ، والشاعر « المتنبّي » وجامع الدواوين الشعرية « الأصفهاني » ، وصاحب الفهرست « النديم » ، والفلكي الرياضي « أبو الوفا » ، والمتكلم « الأشعري » والطبيب الشهير « علي بن العباس » ، وأبو الجراحة في كل العصور : « الزهراوي » .

وكان هذا القرن قرناً عجباً في الثقافة ، برّ ( تفوق ) فيه العربُ الفُرسَ في تفوقهم العقلي ، فكتبوا بحوثاً في الأنساب والآثار وفقه اللغة ، وعملوا جداول فلكية ، وألفوا كتباً كثيرة في وصف البلدان ، وأصدرت جماعات « إخوان الصفا » رسائل في العلوم ، تنطلق في فكرها من مذهب الأفلاطونية الفلسفية

الجديدة ، وكانت الأعداد الهندية تنتشر في العالم الإسلامي شرقاً وغرباً ، و « ألف ليلة وليلة » تُصنّف ، في صورتها الأولى ، بالعربية .

وجاء الحصاد الثقافي لهذا القرن ضخماً في مجموعته ، عربي اللغة في معظمه ، وكان حصاداً يفوق في جهده ، أي جهد وعطاء ثقافي للدول غير الإسلامية ، في قارات العالم القديم الثلاث .

## دستور الجراحة

حين بلغ « الزهراوي » من العمر ستاً وسبعين سنة ، عاد « أبو بكر الكرماني » من مدينة « حرّان » حاملاً معه ، من المشرق ، رسائل « إخوان الصفا » ، ومعرفة واسعة بالرياضيات ، وتقريراً مستفيضاً عن « البيمارستان » الذي أنشأه « عضد الدولة » في بغداد ، وكان « الزهراوي » قد بعث به ، قبل ست سنوات ، إلى « حرّان » ليعرف للأندلس ، ما لم يكن معروفاً من الكتب ، وتطوّرات العلوم .

وجلس « الزهراوي » مع ابنه ، ومع « الكرماني » وقدم





خاصة ، يطلبون علمه ، وينصتُون إلى نصائحه . وقال لهم فيما قاله ذات لَيْلَةٍ :

- راجعوا التشريحَ قَبْلَ كُلِّ جِرَاحَةٍ ، فالجهلُ بالتشريحِ يؤدي إلى نتائج وخيمة . وعليكم أن تأخذُوا بالحذر ، قَبْلَ كُلِّ جِرَاحَةٍ ، فلا يمارس أحدُكم الجراحةَ ، وهو يشعرُ بالغرور ، أو يحسُّ بالخوف ، أو الغضب ، وابتعدوا عن الجراحاتِ الخطِرة ، العسيرةِ البرءِ ( الشفاء ) ، فمثل هذه الجراحاتِ لم تُعرفْ بَعْدُ . واحرصُوا ، حين تصيرون أطباءً ، على حضورِ كُلِّ الجراحاتِ ، وأخذِ بعضِكم لمشورةِ البعض ، ومعاونةِ بعضِكم

لهما خبرة حَيَاتِهِ كُلِّهَا ، العِلْمِيَّةُ وَالْعَمَلِيَّةُ ، في كتابه « التصريف » ، وكان كتاباً طبياً موسوعياً شاملاً في ثلاثين جزءاً ، أولها في كلياتِ الطبِّ النظرية ، وثانيها وثالثها عن الأمراضِ وأسبابها ، من الرأسِ إلى القدم ، وآخرها عن الجراحةِ عامَّةً . وبين هذه وتلكِ اثنان وعشرين جزءاً ، خاصة بالأدوية المفردةِ والمركَّبة ، ومكاييلها ، وموازينها .

وكان الجزءُ الثلاثونَ يَقعُ في ثلاثةِ أبوابٍ ، يندرجُ تحتها مائةٌ وثمانيةٌ وثمانون فصلاً ، عن الجراحاتِ ، وعملياتِ الجراحةِ ، وطرقها ، وعن طرق ومواضعِ الجَبْرِ ، والخلع ، والكسْرِ ، والكَيِّ ، وكان جزءاً مزوداً بالرسومِ لآلاتِ الجراحةِ ، وأدواتها .

### الليلة الأخيرة

وكان « الزهراوى » قد بلغَ من العمرِ سبعاً وسبعين سنةً ، وقد أرهقه ما بذله من جُهدٍ ، في سنواتِ عمره ، فاعتكف في داره بقُرطبة ، يفدُ الأطباءُ لزيارته ، واستشارته ، والأصدقاءُ لعيادته في أمراضِ الشيخوخة ، والفقراءُ طلباً لعلاجهم لأمراضهم ، والطلابُ الناشئون في بیمارستان الذى صار على يد « الزهراوى » داراً للعلاج ، ومدرسةً لتعلم طبِّ الجراحةِ



لِبَعْضٍ ، وَلَا تَبْخُلُوا بِطِبِّكُمْ عَلَى صَدِيقٍ أَوْ عَدُوٍّ ..

وَفِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ ، أَسْلَمَ « الزَّهْرَاوِيُّ » الرُّوحَ ، وَكَانَ وَحِيداً  
فِي فِرَاشِهِ ، عِنْدَ أَذَانِ الْفَجْرِ ، فِي الْعَامِ الْهَجْرِيِّ الرَّابِعِ بَعْدَ  
الرَّابِعِمِائَةِ ، الْمِيلَادِيِّ الثَّالِثِ عَشَرَ بَعْدَ الْأَلْفِ .

وَبَكَتْهُ الْأَنْدَلُسُ ، وَسَرَتْ أَخْبَارُ وَفَاتِهِ إِلَى عَوَاصِمِ  
الْفِرَنْجَةِ ، فَحَزَنَ أَهْلُهَا عَلَيْهِ ، حُزْنَهُمْ عَلَى عَالِمٍ مِنْ عُلَمَائِهِمْ .

وَفِي الْقُرُونِ التَّسْعَةِ التَّالِيَةِ ، شَاعَتْ مَعَارِفُ الْجِرَاحَةِ  
الزَّهْرَاوِيَّةِ ، وَأَسَالِيْبُهَا ، وَآلَاتُهَا وَأَدَوَاتُهَا فِي أَرْجَاءِ أَوْرَبَا ،  
وَصَارَتْ طَرَائِقُ « الزَّهْرَاوِيِّ » الْجِرَاحِيَّةِ مَعْرُوفَةً عِنْدَ كُلِّ أَطْبَاءِ  
أَوْرَبَا بِاسْمِ : « الزَّهْرَاوِيَّةِ فِي الْجِرَاحَةِ » فِي الْجَامِعَاتِ ،  
وَالْمُسْتَشْفَيَاتِ .

وَكَتَبَ الْأَوْرَبِيُّونَ اسْمَ « الزَّهْرَاوِيِّ » ، وَنَطَقُوهُ  
بَطُرُقٍ شَتَّى ، فَهُوَ : الْبَلْكَاسِسُ ، وَ : أَبُو الْكَاسِسِ ،  
وَ : السَّرَوِيُّ ، وَ : أَكْرَانِي ، وَ : زَاهَرْفِيُوسُ ، وَ : الْكَارَانِي ،  
وَ .. الزَّهْرَاوِيُّ .

وَبَلَغَ مِنْ افْتِتَانِ أَطْبَاءِ الْفِرَنْجَةِ بِابْتِكَارَاتِ « الزَّهْرَاوِيِّ »

الْجِرَاحِيَّةِ ، أَنَّ بَعْضَهُمْ نَسَبَهَا إِلَى نَفْسِهِ ، مِثْلَ وَضْعِ « وَالشَّرَّ »  
فِي الْوِلَادَاتِ الْعَسِيرَةِ .

وَانْتَقَلَتْ نَسْخُ أَجْزَاءِ كِتَابِ « التَّصْرِيفِ » ، فِي أَرْجَاءِ  
الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ ، فِي زَمَانِهِ ، وَتُرْجِمَتْ إِلَى اللَّاتِينِيَّةِ فِي الْقَرْنِ  
الثَّانِي عَشَرَ الْمِيلَادِيِّ ، تُرْجِمَتْ كُلُّهَا حِيناً ، وَبَعْضُهَا حِيناً  
آخَرَ ، مِنْذُ سَقَطَتْ مَدِينَةُ « طَلِيْطَلَةُ » فِي يَدِ الْأَسْبَانِ .

وَتَوَالَتْ تُرْجَمَاتُ « التَّصْرِيفِ » إِلَى الْقَرْنِ الثَّامِنِ عَشَرَ  
الْمِيلَادِيِّ ، مِنَ الْعَرَبِيَّةِ إِلَى الْإِنْجِلِيزِيَّةِ ، وَالْفَرَنْسِيَّةِ ، وَالْأَلْمَانِيَّةِ ،  
وَالْعِبْرِيَّةِ ، وَالتُّرْكِيَّةِ . وَرَغْمَ كُلِّ هَذِهِ التَّرْجُمَاتِ لِكِتَابِ  
« الزَّهْرَاوِيِّ » ، وَسِوَاهُ مِنْ عُلَمَاءِ الْإِسْلَامِ ، كَانَ عُلَمَاءُ الْغَرْبِ  
يَقُولُونَ : « مَنْ لَمْ يَعْرِفِ الْعَرَبِيَّةَ لَمْ يَعْرِفْ مِنَ الْعِلْمِ شَيْئاً » .

وَشَاعَتْ نُسْخُ كِتَابِ « التَّصْرِيفِ » الْعَرَبِيَّةِ ، فِي مَكْتَبَاتِ :  
جُوتِهَ ، وَبَارِيْسَ ، وَبُودُلْيَانَا ، وَمُونَبِلِيَّةِ ، وَهَانْتِنِكُتُونِ ، وَمَكْتَبَةِ  
مَدِينَةِ حَيْدَرِ آبَادِ الدُّكْنِ ، الَّتِي طُبِعَ فِيهَا الْقِسْمُ الْجِرَاحِيُّ  
بِالْعَرَبِيَّةِ ، فِي الْعَقْدِ الْأَوَّلِ مِنَ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ ، ثُمَّ طُبِعَ فِي بَارِيْسَ  
طَبْعَةً أُنِيقَةً ، فِي الْعَقْدِ السَّابِعِ مِنَ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ ، وَكَانَتْ أَوَّلُ  
طَبْعَةٍ لِحِزْرِ الْجِرَاحَةِ ، بِالْعَرَبِيَّةِ وَاللَّاتِينِيَّةِ مَعاً ، فِي « أَكْسْفُورْدِ »  
فِي مَجْلَدَيْنِ ، فِي الْعَقْدِ الثَّامِنِ ، مِنَ الْقَرْنِ الْمِيلَادِيِّ الثَّامِنِ عَشَرَ .



وكثيرون من أطباء العالم ، استفادوا ، أو اقتبسوا ،  
معارف علمية من معارف « الزهراوى » ، عن التغذية ،  
والسُموم ، والجراحات ، وبينهم كان : « ابن العوام » ،  
و « شولياك » جراح فرنسا الكبير ، فى القرن الميلادى الرابع  
عشر ، والذى أُرُبت ( زادت ) اقتباساته من « الزهراوى » على  
مائتى مرة ، والذى ألحق النسخة اللاتينية لجزء الجراحة ، بأهم  
مؤلفاته فى الطب الجراحى . وبينهم كان الأطباء : فرارى ،  
وجراديلس ، و « اردوزيريس » الذى أخذ نصف معلوماته عن  
السُموم ، من كتاب « التصريف »

وحين يأتى العام الثالث عشر ، من القرن الحادى  
والعشرين ، سيكون ذلك العام ، هو العام الألفى لوفاة  
« الزهراوى » . وحين يأتى العام السادس والثلاثين ، من القرن  
الحادى والعشرين ، سيكون ذلك العام ، هو العام المائة بعد  
الألف ، لذكرى ميلاد « الزهراوى » . ولعل العالم العربى  
والإسلامى أن يحتفل بهذه الذكرى ، لطبيب عالم ، نسى  
العرب والمسلمون علمه وكتابه وذكره ، وأخيا الغربيون دائما  
هذه الذكرى فهو : أبو الجراحة ، فى كل العصور .



## الزهرأوى

الزهرأوى أبوالجراحة فى كل العصور.. عاش فى القرن  
العاشر الميلادى . ومارس الجراحة بىديه بدلاً من  
الحلاقين . وأعاد تأهيل القابلات . وابتدع نظام  
الممرضات . وابتكر آلات جراحية من حديد لا يصداً بدلاً  
من الذهب والفضة . واكتشف أساليب جديدة للجراحات

الظاهرة والعميقة . وعلم أسرار  
الجراحة لأطباء أوروبا فى زمانه  
وألف موسوعة طبية مزودة  
بالرسوم لأول مرة . إنها قصة تثير  
الفخار . يقرأها الصغار والكبار .

صدر من هذه السلسلة :

- |                 |               |
|-----------------|---------------|
| ١- ابن النفيس   | ١٠- الإدريسى  |
| ٢- ابن الهيثم   | ١١- الدميرى   |
| ٣- البيرونى     | ١٢- ابن رشد   |
| ٤- جابر بن حيان | ١٣- ابن ماجد  |
| ٥- ابن البيطار  | ١٤- القزوينى  |
| ٦- ابن بطوطة    | ١٥- ابن يونس  |
| ٧- ابن سينا     | ١٦- الخازن    |
| ٨- الفارابى     | ١٧- الجاحظ    |
| ٩- الخوارزمى    | ١٨- ابن خلدون |

١٩- الزهرأوى

مركز الأهرام للترجمة والنشر

مؤسسة الأهرام

التوزيع فى الداخل والخارج : وكالة الأهرام للتوزيع

ش الجلاء - القاهرة

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر